الباب الأول

المدينة – دار الهجرة

الباب الأول

المدينة – دار الهجرة

"أمرت بقرية تأكل القرى. يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد".

(حديث شريف)

نشأ مالك بالمدينة التي إليها كانت الهجرة. وبها نزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام. ولم يبرحها إلى بلد آخر. ومنها نشأت نظرياته في الفقه والاستدلال. وإليه انته طرائقها. فأصبح في الطليعة من سدنة السنة. وقد سنت كثرتها بالمدينة. وفيها قضى عظماء الصحابة عظم حياتهم، فشاركوا في الحفاظ عليها، واستمرار "الأمر الأول" في الأجيال اللاحقة. ومن ثمة كانت المدينة والسنة كل شئ في الرجل ومذهبه، يستوي في ذلك رجالها أو الحوادث التي نجمت فيها. مذ وطئت ثراها أقدام النبي عليه السلام والصديق أبي بكر. فظهرت في الحياة والعبادات والمعاملات السنن التي صحبت الفجر عند انفجاره، في عصر الرسول، والإسلام عند انتشاره، في عهد الخلفاء الراشدين.

ولما استطارت الفتن فخلفت على وجه الأمة ما يشبه جراحات المعارك. توالدت الملل والنحل والطوائف والانقسامات، فأجاءت إلى الوجود، في حياة مالك وأبيه وجده، أعظم دولتين في الإسلام. وشارك مالك في عصريهما بكفل زاخر من الفقه الذين تدين به الأمة.

وإذ كان من تعاليم النبي ﷺ للمسلمين "عليكم بسنتي وسنة خلفائي الراشدين المهديين من بعدي. تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ"، وكان عصر الخلفاء الراشدين والصحابة عميق الأثر في تابعيهم من أساتذة مالك. وكان العصر الذي منح مالكا بعض خصائص السابقين وذخائرهم استمرارا واتباعا للقرن الأول. فالعصران مدخلان لتصوير خصائص مالك.

وفصلا هذا الباب، كمثل سائر الفصول في الكتاب، تجري كحياة مالك. في مدينة واحدة هي المدينة: دار الهجرة – والسنة واليسر والسماحة.

الفصل الأول

يثرب – أو المدينة المنورة

بلغ النبي عليه الصلاة والسلام، وأبو بكر معه،قرية "قباء" – على مبعدة فرسخين من يثرب – فأقام أياما، فبنى مسجد قباء ولحق به هنالك علي بن أبي طالب، بعد أن رد للناس ودائع خلفه النبي ليردها، ولينام في فراشه، فيحميه وصاحبه إذ يأويان إلى الغار. اثنين الله ثالثهما. مأمورين بالهجرة إلى يثرب. وقد أصبحت فيما بعد: المدينة المنورة.كراهة لا سم يثرب. لما في اللفظ من تثريب.

وفي يثرب ترك عليه السلام ناقته تسعى حتى بركت. فبنى داره واتخذ مسجده، وأمر ألا تشد الرحال إلا إلى مسجده هذا. والمسجد الحرام. والمسجد الأقصى.

ومن المدينة ومسجدها انطلق الإسلام.

ولقد أبقاه أبو بكر على حاله، "اتباعا" لما صنع النبي، وزاده عمر "اجتهادا" لمواجهة الزيادة التي طرأت على العاصمة الأولى للإسلام.

في هذا المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم كمسجد قباء، سيجلس مالك بن أنس غدا، متبعا، ومجتهدا، لحراسة السنة وسماحتها وعمل المدينة وعلمها. أحرف الهجاء في منهاج مالك. وتطاول به العمر، فلبث أحقابا يتلقى علوم الإسلام ويلقيها على عظماء الفقهاء والخلفاء والتلاميذ والأئمة، ليقدموها للزمان كله.

* * *

كانت تربطه عليه الصلاة والسلام، روابط شتى بيثرب من قبل. فيها الخزرج أخوال جده عبد المطلب، وفيها ولد عبد المطلب وترعرع حتى دعاه أخوه المطلب ليشغل مناصب أبيهما هاشم. فغلبه عليها أخوهما نوفل. فاستعدى أخواله فنصروه فردت إليه حقوقه بمكة. ثم تعهد عبد المطلب حفيده فنشأه يتيما في حجر أمه... وفيها دفن أبوه عبد الله إذ مات في زيارة لأهله هنالك. عائدا من تجارة بالشام. ولما خرجت باليتيم أمه في السادسة من عمره ليرى قبر أبيه.

ويتعرف على ذويه بالمدينة، رجع إلى مكة من دونها إذ جادت بروحها في طريق العودة، فدفنها بالأبواب على مبعدة ثلاثة وعشرين ميلا من المدينة.

وفي العام التاسع من حياته سافر في تجارة مع عمه أبي طالب إلى بصرى بالشام، فلما قفلا راجعين مرا بقبري أبويه زائرين مترحمين. وكم قص النبي بعد الهجرة أحاديث رحلته وعودته بغير أم. مضاعف اليتم، من يثرب.

كان المسلمون بمكة قلة يلقون العذاب من المشركين بالعشى والإشراق. مستبشرين. ثم هاجر إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة ثلاثة وثمانون، يتصدرهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي. ثم جاء نصر الله بستة من الخزرج من المدينة يلقون الرسول عند منى، ويواعدونه العام القادم، وفي العام التالي بايعه بيعة العقبة الكبرى أو الثانية، ثلاثة وسبعون وامرأتان. راجين أن يكون بين ظهرانيهم بيثرب، حيث الأمان من مكة. فأمر صحبه بالهجرة إليها متفرقين. واستأذنه أبو بكر فقال له: "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا".

ثم هاجر فآخى بين المهاجرين من مكة والأنصار بالمدينة من كل فريق خمسة وأربعون يتصدرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة وأبو عبيدة بن الجراح. ومن المهاجرين والأنصار تألف المجتمع الجديد في المدينة.

ولم يكد ينصرم عام حتى جيش المسلمون ببدر ثلثمائة رجل ونيفا يهزمون من المشركين نحو ألف. وراية المسلمين مع علي بن أبي طالب.

وتوالى نصر الله بالمدينة. وقعت وقعة بدر في السنة الثانية. وفي الثالثة أحد.وحمراء الأسد. وفي الرابعة والخامسة بدر الأخرى وبنو النضير والأحزاب. وبنو قريظة، وفي السادسة الحديبية وفي السابعة خيبر والعمرة.وفي الثامنة فتح مكة وغزوة حنين.

غزا بنفسه خمسا وعشرين غزوة. وقيل سبعا وعشرين وسراياه ست وخمسون. قال علي: "ما كان منا أحد أقرب إلى العدو منه".

خاطب عليه الصلاة والسلام مكة يوم الفتح بقوله: "والله إنك لأحب أرض الله إلي. والله لولا أني أخرجت منك ما خرجت" فحسب الأنصار أن رسول الله حن إلى وطنه. فقال لهم: قد سمعت الذي قلتم يا معشر الأنصار. المحيا محياكم، والممات مماتكم. والله لو سلكت الأنصار واديا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم. ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار".

وفي سنة تسع توجه تلقاء أرض الروم في الشمال فكان أقصى أمره تبوك. ورجع إلى المدينة فأقام. وبعث أبا بكر أميرا على الحج سنة تسع. فكانت الحجة الأولى في الإسلام.

ودخلت سنة عشر فأقامها بالمدينة. وجاءته وفود العرب من كل وجه. وبعث رسله إلى ملوك الأرض. فلما حضر الموسم خرج إلى مكة فأقام للناس حجهم. وعرفهم مناسكهم. وخطب ثم نزل فتلا قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا).

وصدر إلى المدينة فأقام بقية ذي الحجة من سنة عشر، والمحرم وصفر واثنتى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة إحدى عشرة.

ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى عن ثلاث وستين سنة. منها عشر سنين بالمدينة هي السنوات العشر التي أرست كثرة الأسس الإسلامية. ومات عن نحو عشرة آلاف صحابي بالمدينة.ومن عداهم ألفان تفرقوا في سائر البلدان.

وأمست جزيرة العرب كلها جزيرة إسلامية عاصمتها "المدينة".

تكونت الدولة الإسلامية – والتشريع عمادها – بالمدينة. فنزل الوحي يتغيا غايات خاصة بالأمة والدولة وقواعد الحرب والسلم والقضاء والإفتاء والعبادات والمعاملات دون أن يقتصر على أمور الاعتقاد والأخلاق التي عرفها المسلمون بمكة.

وكمثل الوحي أخذت السنة في المدينة تظهر في المعاملات لا في مجرد العقائد.

وتجلت النظرات الأخلاقية في التشريع العملي. فترقرقت مظاهر التسامح واليسر والعفو في صفحاته. قال عمر بن إسحق: "لمن أدركت من أصحاب رسول الله أكثر ممن سبقني منهم فما رأيت قوما أيسر سيرة ولا أقل تشديدا منهم".

وضحت السنة بالمدينة تشريع الزكاة في مصدرها ومصرفها ومقدارها وطبيعتها كضريبة واجبة على الربح والدخل ورأس المال.

وشرع الصيام وتحويل القبلة إلى الكعبة في العام الثاني للهجرة بالمدينة.

وفي المدينة حددت الزوجات بأربع. ونهت السنة عن الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها. وحرمت من الرضاع ما يحرم من النسب. وحرم الزواج بمشركة وزواج المسلمة بغير المسلم.

وحرمت الخمر تحريما كاملا. وتجلى عداء الإسلام للانتهاز والاستغلال في النهي عن الربا أو الكسب دون عمل. وعن الغرر أو الكسب بالمغامرة. وأرسيت قواعد الأسرة. ووضحت قواعد الميراث.

وبين القرآن خمس عقوبات دنيوية هي القصاص، بينه في سورة البقرة – وهي مدنية – بعد إذ كان قد أبقاه بمكة في سورة الإسراء لأنه من مألوف العرب، ونزل حد الزنا في سورة النور وهي مدنية. وشرع حد القذف. وبين حد السرقة في سورة المائدة وهي مدنية. وفيها أيضا حد قطع الطريق وبينت السنة في المدينة حد شرب الخمر.

وغلبت في مجتمع المدينة آية الرحمة. ودرئت الحدود بالشبهة... وتجلت بالقول والفعل خصائص الحنيفية السمحة: لا تكلف نفس إلا وسعها. ولا تزر وازرة وزر أخرى. ولا تكليف إلا ببلاغ. ولا عقاب لمن اضطر غير باغ. ودعي الناس للتوبة ووعدوا بالمغفرة.

وروعيت المصلحة ودفعت المشقة. وترك للعرف مكانه فيما يصلح للجماعة مما كان في الجاهلية، وأوصى الرسول بأهل الذمة فقال: "من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة".

* * *

كانت المساواة بعد التوحيد. أساسا للدين الجديد – وبهذا تصدر بين الصحابة بلال الحبشي. وقال النبي عن سلمان الفارسي: "سلمان منا أهل البيت".

وحرص الرسول على تعليم المسلمين العدل والمشورة. بالفعل والقول. باعتبارهما جوهر المساواة ومظهرها. اعترضه في الطريق بالمدينة يهودي له عليه دين لم يحل فقال اليهودي: إنكم بني عبد المطلب أهل مطل!! قال عمر: إيذن لي يا رسول الله أن أضرب عنقه. قال: "أنا وصاحبي أحوج إلى غير هذا منك يا عمر. مره بحسن التقاضي. ومرني بحسن الأداء". والتفت إلى اليهودي يقول: "أيها الرجل إنما يحل دينك غدا".

وقال عليه الصلاة والسلام عن نفسه ورأيه: "إذا أمرتكم بشئ من رأيي فإنما أنا بشر" أي أنه معرض للصواب والخطأ.

روت أم سلمة: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست وليس عندهما فقال رسول الله ﷺ: "إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر ولعل بعضكم

يكون ألحن بحجته من بعض. وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا. فلا يأخذه. فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسطاما في عنقه يوم القيامة" فبكى الرجلان فقال كل منهما: حقي لأخي. فقال رسول الله ﷺ: "أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق بينكما. ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكم صاحبه". وزاد أبو داود "إني إنما أقضي بينكما برأيي فيما لم ينزل علي فيه".

وفي شريعة الشورى يعلن المساواة كذلك فيقول لأبي بكر وعمر: "قولا، فإني فيما لم يوح إلي مثلكما" ويعلن مكانه رأيهما عنده فيقول: "لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما". كان يكثر الاستشارة. ليعلم الصحابة أن يشتوروا. قال أبو هريرة: "ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ".

ودخلت خصائص التواصل والتراحم والقناعة في أسلوب حياة الجماعة: جاء عبد الله بن عمرو رجل سأله: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم. قال: ولك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال الرجل: إن لي خادما. قال: فأنت من الملوك.

وسنرى بعد، عائشة يجيئها نصيبها في الفتوح فتقسم في الناس سبعين ألفا وهي ترقع ثوبها!!

قسمت في الناس مائة ألف لها ثم أفطرت على خبز شعير!! وبعث لها ابن الزبير بغرارتين فيهما مال، ثمانون ألفا ومائة ألف. فجعلت تقسمه في الناس، ثم أمست ما عندها درهم. وقالت: يا جارية هلمي أفطري. فجاءتها بخبز وزيت. وقالت الجارية: أما استطعت فيما قسمت أن تشتري بدرهم لحما تفطرين عليه؟ قالت: لا تعنيني. لو كنت ذكرتني لفعلت!....

وكان الرسول يقول: "الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة".

وازدان المجتمع الإسلامي بمبادئه التي صيرت المرأة الموءودة في الجاهلية فخرا للمجتمع بالعلم والفضل. وشريكة مساوية في الحقوق للرجل. وصار من أزواجه عليه السلام المعلمات اللواتي لم يشق غبار لهن. واللواتي يرجع إليهن أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية وغيرهم.

وكان عليه السلام يعقد حلقة الدرس في المسجد للرجال والنساء ثم طلب النساء لهن يوما غير يوم الرجال فكان لهن يومهن.

ولما خالفه من زوجاته من خالفن. قصد عمر إلى بنته حفصة يعلمها. وقصد أبو بكر إلى بنته عائشة يقضي ضدها في احتكامها إليه. وفي الحديبية لم ينحر الناس ولم يهدوا ويم لحوا. فأفضى عليه الصلاة والسلام إلى أم سلمة بما صنعوا فأشارت بأن ينحر ويهدي ويحل. واتبع مشورتها فهدى الله الناس فصنعوا. وماكان رجوعه إليها إلا سنة المشورة، واحترام المرأة والزوجة.

وفي خطبة وداعه أوصى خيرا بالنساء قال: "واستوصوا بالنساء خيرا".

وكان السلام طبيعته. وتأليف القلوب في منهاجه. كان في الخامسة والثلاثين من عمره. وقبل مبعثه بأعوام. يوم دخل الكعبة، من باب بني شيبة. أول داخل. وقد اختصمت القبائل. أيها يرفع الحجر الأسود في بناء الكعبة، واصطلحوا على أن يحتكموا إلى أول قادم فإذا هو الأول، ليحكم. فيبسط رداءه ويضع عليه الحجر – ويجعل لكل قبيلة ممثلا يأخذ بطرف من الرداء ويرفعون الحجر جميعا، ويحكم حكما إسلاميا قبل أن ينزل الإسلام، فيساوي بين القبائل ويمنع الحرب ويوحد العرب.

ولما أحس عليه الصلاة والسلام بدنو أجله خرج فجلس على المنبر فقال: "أيها الناس. من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه. ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقدمنه. أو من أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه. ولا يخش الشحناء من قبلي، فإنها ليست من شأني. ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقا إن كان له أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس".

* * *

وإذا كان من الأمور ما يشبه العدسات الصغيرة التي تظهر أشياء كثيرة ففي صلح الحديبية مشابه من ذلك، هنالك الخلفاء الراشدون الأربعة إلى جوار الرسول، ولكل فضل، وهناك مقدار ما ينجح اليسر، وخصائص أبي بكر وعمر.

بلغ النبي مكة في ألف وأربعمائة. وأخذت قريشا المفاجأة. فهبت تصده عن الكعبة واختار عثمان للمفاوضة فأنجحته سجاياه، وأملى الرسول العهد على علي بن أبي طالب قال: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم" قال سهيل بن عمرو ممثل المشركين: أمسك. لا أعرف الرحمن

الرحيم. اكتب باسمك اللهم. ثم قال الرسول: "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو" قال سهيل: "لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال عليه الصلاة والسلام، وهو في مركز القوة: "اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله...".

تضمنت العهدة أن من جاء المسلمين بغير إذن وليه ردوه. ومن جاء قريشا من المسلمين لم يردوه. قال عمر لأبي بكر: يا أبا بكر. أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال بلى. قال عمر: فعلام نعطي الدنية في ديننا.

قال أبو بكر: ياعمر الزم غرزه (رحله. ركابه – يقصد موقفه) فإني أشهد أنه رسول الله.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

وانقلب عمر إلى الرسول مغيظا محنقا، ولكن الرسول أجاز العهدة ووقع صحيفتها.

وتشاء السماء أن يمتحن المشركون وفاء المسلمين، فلم يكد النبي يوقع العهد حتى جاءه أبو جندل بن سهيل نفسه موثقا بالحديد فرارا بدينه. قال سهيل للنبي: قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. فهو لي. فقال رسول الله: "يا أبا جندل قد لجت القضية بيننا وبين القوم، ولا يصلح لنا الغدر، والله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا".

وأخذ المشركون أبا جندل.

ثم خرج (أبو بصير) من مكة مسلما إلى المدينة بغير إذن وليه وأرسلت قريش إلى النبي تستعيده فأعيد مع اثنين من قريش فقتل أحدهما في طريق مكة وفي إلى ذي الحليفة يقطع الطريق على تجارات مكة، وتداعى إليه سبعون فارون مثله. ولحق بهم أبو جندل من مكة. فتوسلت قريش أن يقبلهم النبي عنده لئلا يقطعوا الطريق على تجارتها! ثم نقضت قريش العهد بمعونتها لبني بكر – أوليائها – على بني كعب – أولياء النبي – فخرج المسلمون إلى مكة. فكان الفتح دون إهراق دم، وإسلام قريش، وإسلام جزيرة العرب.

وأصبح سهيل بن عمرو نفسه أكثر كبراء قريش صياما وقياما وصلاة وصدقة، وخطيب أهل مكة ليثبتوا على الإسلام عند الردة. وانتهى به الجهاد إلى الاستشهاد في اليرموك.

في هذا الموقف يتراءى لنا النبي يسرا كله، وأبو بكر اتباعا كله، أبلغه الاجتهاد فيه ما شاء الله أن يبلغه.

ويتراءى لنا عمر في المنهاج ذاته متبعا، مجتهدا، مجادلا.

لكن أبا بكر هو الصديق "وثاني اثنين" عناهما القرآن، أولهما النبي.

وهذا المنهاج للرجلين معا سيكون منهاج المدينة كلها تتوارثه جيلا بعد جيل، حتى يؤول إلى مالك بن أنس فيقف منه ومن دين الإسلام مواقف حراس القلاع أو حراس المنائر، وتخلع القلعة أو المنارة اسمها على الحارس، فيتلازمان على الزمان.

الصديق يجتهد:

خلف الصديق الرسول عليه السلام، وكان من قوله يوم أنفذ أسامة: "إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني" وقال لفاطمة الزهراء: "إني والله ما أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته".

"فالابتداع والاتباع" تعبيران من تعبيرات أبي بكر في الأيام الأولى لخلافته يتخذهما قاعدة لسياسة الدولة والأمة.

في غزوة مؤتة أمر الرسول على الجيش زيد بن حارثة، مولى النبي – فإن مات كانت الإمارة لجعفر بن أبي طالب، يريد – عليه السلام – ليكون في إمارة المسلمين المولى والقرشي ابن عم النبي.

ولما أمر النبي في آخر أيامه أسامة بن زيد على الجيش كان فيه أبو بكر وعمر. ولم يفصل الجيش عن المدينة لموته عليه السلام.

وسرى الهمس في الأنصار – فقصدوا عمر يقولون: "أبلغه – أبا بكر – عنا واطلب غليه أن يولي أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة" فحدثه عمر فوثب من مكانه وأخذ بلحية عمر وقال مغضبا: "ثكلتك أمك يا ابن الخطاب. استعمله رسول الله ﷺ. وتأمرني أن أنزعه"!!

ورجع عمر إلى الأنصار يقول: "امضوا ثكلتكم أمهاتكم.. ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله".

وسار أبو بكر على قدميه يودع جيش أسامة، ودابة أبي بكر من ورائه يقودها سيد من سادات قريش هو عبد الرحمن بن عوف.

قال أسامة وهو راكب مركب القائد: يا خليفة رسول الله! والله لتركبن أو لأنزلن. قال أبو بكر: "والله لا تنزل ووالله لا أركب. وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة" حتى إذا أخذ يودعه قال له أبو بكر: "إذا رأيت أن تعينني بعمر فافعل" وبلغت شجاعة القائد الشاب أن تخلى عن عمر.

* * *

رجع أبو بكر إلى المدينة يواجه ردة العرب في أرجاء شبه الجزيرة. ردة كاملة أو عن بعض الفروض (الزكاة)، قائلين إنهم بايعوا محمدا، ومحمد قد مات. أو قائلين إنهم لا يخضعون سلطات المدينة، بل يسترجع كل قبيل سلطانه.

ادعى النبوة "مسيلمة الكذاب" في اليمامة شرقي الجزيرة العربية وادعتها في شمال العراق "سجاح". وسيزف المتنبآن فيتزوجان! وادعى النبوة في الجنوب لقيط بن مالك في عمان. وكان قد ادعاها في اليمن "الأسود العنسي" في أواخر أيام الرسول فواصل أتباعه الارتداد. وفي بني أسد تنبأ طلحة بن خويلد... وانتشر الكفر انتشار النار في الهشيم فوق رمال شبه الجزيرة.

ولم يضيع خليفة الرسول لحظة في إعداد العدة ليقاتل المرتدين لكن عمر قال: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله إلا بحقه" وهم يقولونها؟ قال أبو بكر لفقيه المسلمين عمر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. فإن الزكاة حق المال. وأضاف: "والله لو منعوني عناقا لقاتلتهم على منعها" ثم قال: "يا ابن الخطاب رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك. أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي وتم الدين. أو ينقص وأنا حي"؟

لا جرم كان أبو بكر أفقه في اجتهاده واتباعه. فالزكاة حق في المال وركنا للدين، وكانت حروب الردة خيرا في شكل شر. وطدت أركان الدين، وأعدت العرب إعدادا عسكريا لتنقل الجيوش المحاربة ذاتها بالدين إلى كل مكان في بضعة وعشرين شهرا.

وكان عمر جليلا في اتباعه لما تبين له الحق من أبي بكر. يقول أبو رجاء البصري: دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلا يقبل رأس رجل ويقول له: أنا فداؤك. ولولا أنت لهلكنا! قلت من المقبل ومن المقبل؟ قالوا هو عمر يقبل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين.

* * *

حارب خالد بن الوليد المتنبئين الثلاثة طلحة ومسيلمة ومن باطنه سجاح. وكان لصناديد المسلمين إمرة الألوية الأخرى. وكانوا جميعا من المهاجرين. أما الأنصار فأبقاهم أبو بكر للدفاع عن المدينة.

وحالف النصر ألوية الإسلام في كل مكان. وقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة قائد المرتدين وبنى بامرأته في ميدان القتال. على غير مألوف المسلمين. فاختلف في أمره أبو بكر وعمر – عمر يرى محاسبة خالد من فوره. وأبو بكر يراه يحرز النصر تلو النصر فلا يشيم سيفا سله الله. فلا يعزله. ويتبع ما صنعه الرسول معه يوم قتل بعض الأسرى في حرب بني جذيمة فلم يعزله وودى القتلى.

وستثبت الأيام سداد أبي بكر فيفتح خالد أعظم الفتوح للإسلام. ويثبت عمر صدق عزمه عندما يلي الخلافة فيعزله. فالنصر من عند الله سبحانه.

ولم يكن عزل عمر لخالد راجعا إلى وجوب أن يخضع السلاح للوشاح أو السلطة العسكرية للسلطة الشرعية. كما يقول المثل اللاتيني من عهد الرومان Cedant arma togoe وهو مبدأ لم يؤخذ على خالد فيه أثارة من الريب. فلقد كان مثلا أعلى في طاعة ولي الأمر واتباعه. وإنما أخذه عمر بالشدة للأسباب التي أخذه بها أبو بكر باليسر.

وجملة رأي عمر أن خالدا سيف الله المسلول، وهو بهذا مطالب بأن يأخذ نفسه بالفضائل الإسلامية أضعاف ما كان يطالب بها غيره.

وعمر كان يميز نفسه، وأهله، بأن يأخذهم بأكثر مما يأخذ به سائر الناس. ويضاعف لهم العقاب إن أخطأوا – وخالد ابن عم حنتمة أم عمر. وهو ابن لبابة الصغرى أخت أم المؤمنين ميمونة. وأخت لبابة الكبرى زوج العباس عم النبي.

ولقد أعلن عمر بعد عزل خالد أنه خشى أن يفتتن به الناس.

وخالد مثل يقتدى به. وعمر يضرب الأمثال كافة للناس.

* * *

استشهد يوم اليمامة – في حروب الردة – مائتان وألف من المسلمين بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة وحافظ القرآن.

فذهب عمر إلى أبي بكر يقول: إن القتل استحر بالقراء في المواطن. فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإني لأرى أن تجمع القرآن.

قال أبو بكر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير. ولم يزل يراجعه حتى شرح الله بذلك صدر أبي بكر. ورأى الذي رآه عمر.

وعهد الخليفة إلى زيد بن ثابت فتتبع القرآن من الرقاع والأكتاف والعسب (جريد النخل) وصدور الرجال فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله. ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر. وأخرج زيد السور كما جمعت آياتها في عهد الرسول...

وهكذا كان العمل غير العادي في تاريخ البشر والذي حفظ لهم كلام الله كله كما نزل. عملا من الأعمال اليومية لأبي بكر وعمر!

وليست اجتهادات أبي بكر التي أسلفناها إلا أمثالا على اجتهاداته التي أعزت الإسلام وأظهرت جلالة الفقه عنده وعمقه. ومنها انبثق النبع الدافق فتعلمت الأمة – وفيها عمر – على أبي بكر أن تجتهد وهي تتبع الرسول – كمثل ما تعلمت الأمة من عمر. وسنرى عمر غدا المجتهد الأكبر.

* * *

مرض الصديق بعد سنتين وشهور من خلافته فقال الناس: يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا. قال سأجتهد لكم رأيي وأختار لكم خيركم. ثم أرسل إلى عمر فقال: يا عمر أحبك محب. وأبغضك مبغض. وقديما يحب الشر. ويبغض الخير. فقال عمر: لا حاجة لي بها. فقال أبو بكر: لكن بها إليك حاجة والله ما حبوتك بها. ولكن حبوتها بك.

ولما دنت منيته دخل عليه عبد الرحمن بن عوف يعوده وتكلم أبو بكر كلاما للأمة فقال فيما قال: "والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حد. خير له من أن يخوض غمرات الدنيا.. ثم أنتم غدا أول ضال بالناس يمينا وشمالا. لا تضيعوهم عن الطريق. يا حادي الطريق جرت.

عمر يجتهد:

ولي عمر إمارة المؤمنين، وكما يقول ابن قتيبة: اتبع في عمله سنة صاحبيه وآثارهما كما يتبع الفصيل (ولد الناقة) أثر أمة ثم اختار له الله ما عنده.

كان عمر طوالا كأنه راكب يمشي في الناس. عظيما كل العظمة التي يتصورها فكر. لكن أبا بكر كان أكبر، ففي شخصه من النبي أكثر. وكان عصره أقرب إلى عصر النبوة من عصر عمر.

ولما أغذ عمر الخطى للحاق بأبي بكر كانت آية النجح في محاولته ثباته في مكانه. بعد النبي وأبي بكر تماما.

ولما أبن عمر أبا بكر قال: "يا خليفة رسول الله لقد كلفت القوم بعدك تعبا. ووليتهم نصبا. فهيهات من شق غبارك. فكيف اللحاق بك".

أعلن عمر أن التقوى هي العدة الوحيدة للدنيا والآخرة. للحياة وللنصر.

قال لسعد بن أبي وقاص: "أما بعد فإنني آمرك ومن معك بتقوى الله. فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو. وأقوى من المكيدة في الحرب. وآمرك وأصحابك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم".

وقال لعبد الرحمن بن عوف إذ طلب إليه أن يلين: "يا عبد الرحمن لقد لنت للناس حتى خشيت الله في اللين ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله في الشدة فأين المخرج" فخرج عبد الرحمن من عنده وهو يقول: أف لهم من بعدك!

وقال عمر: "إن الناس لايزالون مستقيمين ما استقامت أئمتهم وهداتهم".

وقال: "الرعية مؤدية للإمام ما أدى الإمام إلى الله. فإذا رتع رتعوا".

وأيدت أقواله أعماله. فالأعمال أعلى صوتا من الأقوال.

رآه الناس عام الرمادة وقد اسود لونه – وكان أبيض مشربا بحمرة – وحرم نفسه السمن واللبن واللحم وجاع مثلهم. ولو لم يرفع الله الجدب لمات هما على المسلمين...

وقدمت السوق بضاعة من سمن ولبن فاشتراهما غلام له بأربعين درهما وذهب إليه – وكان قد حلف لا يأكل سمنا ولا لحما حتى يحيا الناس – قال الغلام: قد أبر الله يمينك وقد اشتريت ذلك بأربعين درهما. قال عمر: أغليت. فتصدق بهما. فإني أكره أن آكل إسرافا. وأطرق هنيهة ثم قال: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم.

وأضحى زهد الزاهدين بعض زهده. والدنيا ملك يده. فنزل بعيشه إلى مستوى الفقراء الذين لا يجدون إلا مائدته. فكان يأكل معهم. ولا يطعم في داره حتى لا يؤثر نفسه بشئ!

وأكثر ضرب الأمثال للناس من نفسه وزوجه وبنيه.. خرج ليلة إلى ظاهر المدينة ومعه مولاه أسلم. فسمعا امرأة جاءها المخاض. فسألها عن حالها فقالت: ليس عندي شئ. فهرول إلى زوجته أم كلثوم – وعاد يحمل دقيقا وشحما على ظهره وتحمل هي أشياء تصلح للولادة. وجعل يحدث زوجها وأم كلثوم تحدثها حتى وضعت فصاحت أم كلثوم: يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام. فعرف الرجل ساعتئذ أن أمير المؤمنين وزوجه هما اللذيان يخدمانه وزوجه!

وجاء أم كلثوم عقد من الجوهر من ملكة الروم في بريد المسلمين. ردا على هدية إليها من طرائف بلاد العرب. فوقع العقد في يد عمر. فأمر فنودي: الصلاة جامعة – واستشار – قالوا: هو لها. قال: لكنه حمل إليها في بريد المسلمين. وقوم ما أهدته إلى ملكة الروم – فرد مثله إليها. وأضاف الجواهر إلى بيت المال.

وجلس يوما يقسم مروطا. وبقي مرط أعجبه واقترح بعضهم أن يعطيه لابنة رسول الله التي عنده (يقصدون زوجته أم كلثوم) بنت علي من فاطمة الزهراء قال: لا بل (أم سليط) الأنصارية أحق لأنها كانت تزفر لنا القرب يوم بدر.

وكانت المساواة عنده قانونا كقوانين الطبيعة الصارمة.

أقام حد الخمر على ابنه عبد الرحمن الأوسط (أبي شحمة). قال العراقيون مات من السياط – والآخرون يقولون: لقد مات لغير السياط بعد شهر.

وعزل خالد بن الوليد. وهو ابن خاله. وسعد بن أبي وقاص وهو من خؤولة الرسول، وخالد سيف الله المسلول. وسعد مرشح عمر فيما بعد للخلافة. وهما كلاهما أعظم قائدين في

الإسلام. وحاسب عماله كمثل ما حاسب نفسه وأهله ومنع الغزاة الأرض التي فتحوها وقوادهم مجموعون تقطر أسيافهم من دم العدو.

وفي ذات يوم قدم الأمير الغساني جبلة بن الأيهم في كوكبة أفراس تحمل فوارس الشام فرحب به وأدنى مجلسه. وكان لجبلة في بلاط إمبراطور الروم مكان. وخرج الأمير إلى الحج مع الخليفة فوطئ إزاره رجل من فزارة. فطلمه فشكا الرجل لعمر. وأقر جبلة باللطمة.

قال عمر: إما أن ترضي الرجل وإما أن أقيده منك. قال: كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة؟

قال عمر: إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله إلا بالتقى والعافية. وقال: إنك إن لم ترض الرجل أقدته منك.

قال: إذن أتنصر.

قال عمر: إن تنصرت ضربت عنقك لأنك أسلمت فإن ارتددت قتلتك.

قال جبلة إذ رأى الصدق من عمر: أنا ناظر في هذا ليلتي هذه، فأنظره عمر، حتى إذا جن الليل هرب جبلة برجاله إلى الشام ثم إلى امبراطور في بيزنطة.

* * *

لكن فتوحات عمر كسرت كسرى وقصرت قيصر: فإذا امبراطوريتان تمسكان نصفي كرة الأرض تساقطان، في بضع سنين – تحت ضربات المؤمنين. لقد فوجئ التاريخ البشري بعرب الصحراء تحيلهم تعاليم الإسلام في أعوام، إلى علماء، وحكماء وساسة نوابغ، وإلى أبطال مغاوير، بغير استثناء، لأنهم كانوا يلتمسون الشهادة وهم يحاربون. وكانوا يتواعدون على الجنة،وفوجئ بوجه الدنيا وعقلها يتغير. والإسلام ينتصر.

وتقدمت مبادئ الإسلام قعقعة أسلحته. كهيئة الضوء يسبق الصوت في الطبيعة. وأقبلت حضارات مصر والرومان وفارس والشام في أربعة أعوام (١٧ – ٢٠) تلتمس أحكام الإسلام. وحق على عمر أن يضيف إلى فتوحه العسكرية فتوحه الفكرية ليكفل المواءمة بين ما عليه الناس وما سوف يكونون، ولم يعد يكفيه الاقتداء بمن سبقوه. بل أضحى عليه الابتداء بما لم يسبقه إليه أحد.

كانت خلافة أبي بكر سنتين وأشهرا، وهي امتداد أو اختتام لعصر النبوة – أما خلافة عمر فسنوات عشر هي فاتحة العصر الجديد للعالم.

وكانت خلافة أبي بكر حربا وإعدادا للحرب وانتصارات لا تقوم فيها مشكلات مجتمعات أو معاملات. أما خلافة عمر فكانت فتوحا للعالم المعروف كله ومعايش وأرزاقا. وفيها المشكلات.

وساعدته الأمة بالانتصارات في ميادين المعارك. وبالشورى معه، والطاعة له، والاعتراض عليه، فأصبحت الأمة الإسلامية صفا، عمر على رأسها، تحس بأنها تؤدي مهمة للتاريخ، فأدركتها بتضحياتها وفضائلها. وكان عمر جديرا بأمته جدارتها به.

* * *

وانطلق الفاروق يجتهد لنفسه وللإسلام – رفع الحظر الذي قرره أبو بكر على المرتدين كيلا يشتركوا في حروب الإسلام، فأبلوا أحسن البلاء... وأجلى النصارى واليهود من جزيرة العرب على أن يختاروا أرضا أخرى صالحة وألا يفتنوا في دينهم. ووضع الديوان لأرباب الأعطيات. ومصر الأمصار التي يصدر عنها المجاهدون. ووضع التاريخ الهجري في السنة السابعة عشرة. ونظم الحكم في البلاد المفتوحة، ورتب الشئون المالية للدولة، وقرر استقلال القضاء عن الخليفة.

وآثر السابقين إلى الإسلام وأهل الرسول في العطاء. كان أبو بكر يقول: "إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك في الآخرة، وإنما هذه الدنيا بلاغ" لكن عمر قال: "لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه" وقال: "ابدءوا بقرابة النبي ﷺ" وقال: "الرجل وبلاؤه في الإسلام. والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناؤه في الإسلام". ثم عدل في أواخر أيامه فقال: "لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم، ولأجعلنهم رجلا واحدا".

وراح يفتح الأبواب في حدود القرآن والسنة: في الزواج والطلاق. مثل أن يحرم الدخول بمن تزوجت في العدة ويمضي الطلاق الثلاث مرة واحدة، ثلاثا، وفي الحدود فيقدر حد الشارب، وفي الميراث فيورث مع الإخوة لأم الأخ الشقيق، وفي القضاء فيقضي،ويعدل عن فقهه، ولا يعدل عن قضائه، ويحترم قوة الأمر المقضي.

واجتهد في الحرية الشخصية فنفى من المدينة تفاديا لخطر وكان سباقا لسد الذرائع وللعمل بالمصالح، لا ينام كيما يجعل الرعية تنام.

وكانت ومضات فكره مصابيح في الإتباع أو الابتكار.

كان يعس ليلة فسمع امرأة تغني:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فلما أصبح سأل عن نصر هذا فإذا هو من أحسن الناس شعرا وأصبحهم وجها. فأمره أن يطم شعره. ففعل فظهرت جبته فازداد حسنا، فأمره أن يعتم ففعل فازداد حسنا، قال عمر والله لا تكون بأرض أنا بها وأمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة.

وفي ليلة أخرى سمع – وهو يعس – نسوة يقلن: أي أهل المدينة أصبح؟ قالت إحداهن: أبو ذئب. فلما جئ به إلى عمر رآه من أجمل الناس فقال له: أنت والله ذئبهن. ثم قال: والذي نفسي بيده لا تكون بأرض أنا بها. قال الرجل فإن كنت لا بد مسيري فسيرتي حيث سيرت ابن عمي. يريد نصر بن حجاج – فأمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة كذلك.

وانطلق في ليلة ثالثة، فإذا قوم على شراب عرف أحدهم فدعاه إليه في الصبح. قال: كنت وأصحابك على شراب. قال: وما أعلمك يا أمير المؤمنين؟ قال شئ شهدته. قال:أو لم ينهك الله عن التجسس يا أمير المؤمنين؟ فتجاوز....

وفي عام الرمادة كان يقول: نطعم المسلمين من بيت المال حتى إذا لم نجد شيئا أدخلنا على كل أهل بيت من الأغنياء مثلهم من المحتاجين وما نزال نفعل حتى يطعم المسلمون جميعا.

* * *

واجتهد عمر، فمنع تدوين الحديث مخافة أن يخلط القرآن بشئ، وكان العرب بالقرآن حديثي عهد، ولقد ظهرت فيما بعد مخاطر إقبال الناس على الحديث فلعله كان على حق. وظهر أن عدم التدوين كان وسيلة للانحراف من أكثر من وجه. فلعل التدوين كان الحق.

ولقد كان عمر في بعض الأحيان يعتذر عن عدم معرفته بحديث فيقول: "ألهاني الصفق في الأسواق" أو ينادي في الموسم بمن يعلم السنة في موضوع بذاته! عن مالك عن ابن شهاب: أن عمر نشد الناس بمنى، من كان عنده علم من الدية فليخبرني فقام الضحاك بن سفيان الكلابي فقال: كتب إلي رسول الله ﷺ أن أورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها فقال له عمر: ادخل الخباء حتى آتيك فلما نزل عمر أخبره الضحاك فقضى عمر بذلك.

وذات يوم نادى في الناس: أذكر الله امرءا سمع من النبي ﷺ في الجنين شيئا. فقام حمل بن مالك قال: كنت بين جاريتين لي فضربت إحداهما الأخرى بمسطح (عود الخباء) فألقت جنينا ميتا فقضى فيه رسول الله بغرة. فقال عمر: "لو لم أسمع فيه لقضينا بغيره".

وكان يعدل عن رأيه إذا تبين له الحق.

لقيه قوم من نصارى أذرعات يلعبون أمامه بالسيوف والريحان كما تعودوا في الحفاوة بالعظماء عندهم فقال: ردوهم وامنعوهم، فهو لا يطيق المظاهر. قال أبو عبيدة بن الجراح: يا أمير المؤمنين هذه عادتهم وإنك إن تمنعهم يروا في نفسك نقضا لعهدهم. فقال: دعوهم. عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة.

* * *

ولئن كان خالد بن الوليد قد ارتفع في عالم الحرب إلى سماء لا تطاولها سماء. أو كان يعلو على قيصر ونابليون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت بمثله من جراحات المعارك. فقال وهو يموت: "شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني موضع إلا فيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح. ولقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي حتف أنفي فلا نامت أعين الجبناء" واندق في يده يوم مؤتة تسعة أسياف. ويوم مؤتة يوم واحد من عشرات. فإن خالدا الضخم لم يكن إلا واحدا من قواد عمر.

وإذا كان فتح مصر على يد عمرو – أخطر تطور في التاريخ الطويل لمصر، ففتح مصر من أصغر فتوحات عمر بطولات. سبقه تدمير إمبراطوريتين بتمامها يحكمان العالم المعروف كله ومنه مصر.

وإذا كانت انتصارات عمر قد فتحت الآفاق في أرض الله كلها للإسلام.

وإذا كان قد وضع التاريخ الهجري فأمسى حديث البشر صباح مساء.

إذا كان ذلك كله كذلك فالدنيا تذكر عمر أكثر، بأمر أكبر، فتقول "عدل عمر"، أكثر مما تقول: فتوحات عمر أو إصلاحات عمر، لأن عمر قد صير العدل دينا له. والإسلام صميمه العدالة.

والعدالة جماع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبهما وبالإيمان كان المسلمون خير أمة، فحقق عمر بعدله قول الله جل ثناؤه: (كنتم خير أمة أخرجت للناس. تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله).

وإنما العدل صفة من صفاته وأسمائه. سبحانه. ومن هنا دخل في صميم العقيدة الإسلامية أصلا إسلاميا أول وارتفع به اسم عمر.

* * *

وذلل السبل لعمر امتداد الزمان به سنوات عشرا، واستقرار الأمور له دهرا، وتعاقب الحوادث وتعاظمها، مع اعتماده الأساسي على المشورة. فشاركته الأمة حكمه، وكثرت اجتهاداته، وأثرت اتجاهاته، في مذاهب الفقه. تتلاقى عندها كالروافد في المجرى العريض الواحد، وما هو إلا بحر الاجتهاد لاستنباط الأحكام والبحث عن العلل ومقاصد الشارع وتخريج النظائر في شريعة معقولة المعنى، تحمل في صميمها أسباب خلودها ووسائله.

ويتجلى مقام عمر الأعلى حيثما تراه قمة للطريقتين اللتين تنتظمان فقه الفقهاء. وهما كما يتجلى بعد أكثر من ألف عام وثلثمائة عام – طريق واحدة قاصدة. هي طريق السنة.

هنالك يتراءى عمر في اتباعه واقتدائه بين النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر، ومن مأثور قوله عنهما: "هما المرءان أقتدي بهما" وبين مدرستي أبي حنيفة ومالك، فأبو حنيفة إمام العراق تلميذ في مدرسة عبد الله بن مسعود. وأقرب فقه إلى ابن مسعود فقه عمر. قال الشعبي: كان عمر لا يقنت ولو قنت عمر لقنت عبد الله. وكان عبد الله يقول: لو سلك الناس واديا وشعبا وسلك عمر واديا وشعبا لسلكت وادي عمر وشعبه.

وفي الوقت ذاته نرى مالكا إمام الحجاز يمت إلى أبي بكر وعمر بكل أسباب مدرسة المدينة من الفقهاء السبعة تلاميذ مدرسة عمر. وعمر بن عبد العزيز – حفيد عمر – وسلسلة الذهب: الشافعي عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر. ونرى مالكا يصنع صنيع عبد الله بن عمر في اتباعه للأمر الأول ويلقي الدروس في مسجد الرسول، حيث كان يجلس عمر بن الخطاب نفسه، بل يتخذ لنفسه مسكنا بالكراء في دار عبد الله بن مسعود نفسه.

وكانت تربط مالكا بأبي بكر روابط وثيقة من الفكر في طريق الاتباع وهو قد تعلم في مدرسة بني تيم قوم أبي بكر. وفيها مدرسة عائشة تعلم المعلمون له.

ولقد شهد التاريخ خليفتين الرسول في اتباعهما يتجاريان، وكأنهما يتباريان، وإن سلم السبق لأبي بكر – وعمر يسبح سبحا طويلا في التيار المقدس.

* * *

وربما أظهرت بعض اللمحات مقدار ما يتكامل الرجلان في الحقيقة والطريقة وإن اختلفا في الطبيعة. وكأنما كان اختلاف الطباع وسيلة للمزاج الموفق الذي ألف منهاجهما.

فموقفهما في صلح الحديبية واحد في حقيقته أو نتيجته إذ انتهى عمر إلى رأي أبي بكر، وبعد قليل من الجدل، وإن كان أبو بكر قد استبان له الحق قبله. بمجرد أن النبي صنعه.

وموقفهما في إنفاذ جيش أسامة الذي أعده هو كهيئة الموقف نفسه.

وكهذين الموقفين اجتهاد عمر في حروب الردة. اجتهاد من بحث عن الحق في مجلس أبي بكر فوجد الحق كله معه، فتبعه.

وثمة اجتهادان آخران مشتركان يدلان على مقدار ما يشتركان ويتساويان. أولهما: جمع القرآن. وكان رأيا لعمر. وأبو بكر هو الذي تساءل قبل أن يقبله: "كيف يصنع شيئا لم يصنعه الرسول" فلما انتهى إليه كان له فضل عمله. ولعمر فيه فضل الابتداء به. والثاني: أن خلافة عمر كانت اختيارا من أبي بكر بابتداء منه. ولم تكن لعمر فيها رغبة، واعتراضه من فورهن مثل تساؤل أبي بكر من فوره عند جمع القرآن، كلاهما مرحلة اجتهاد لبلوغ الحق فلما انتهى الرجلان إلى تنصيب الخليفة الذي سيرسي أركان الدولة وينشر الدين ويفتح أبواب الاجتهاد، كان عمر صنو أبي بكر.

وهذان مثلان آخران لعمر فيهما وجهة نظر، أولهما: تفضيل عمر في العطاء لمن قاتل مع الرسول على من قاتله، مخالفا أبا بكر، وأنفذ عمر رأيه هو، لكنه أعلن عزمه على العدول بعد. والثاني: عزل خالد، حيث عمل أولا برأي أبي بكر ثم أنفذ رأيه عندما أتيحت له السلطة. فهذان موقفان يتلاقيان في أمور ويفترقان في أمور وفي موطن لقائهما والفراق بينهما أكثر من مصلحة.

كانت بصيرة الصديق ترى الرأي الحق في أكثر المواقف، دون حاجة لجدل. فلقد كان أطول من عمر صحبة، وأعلى منه سنا بسنوات عشر قضاها كلها مع صاحبه ﷺ. وبهذه الصحبة التي أتيحت لأول المسلمين من الرجال سبق أبو بكر وسمق، فصار التوفيق لما يلزم للدين جوهر طبيعته وإن ناقش وإن استشار، وصار التصديق والاتباع الفاهم الملهم طريقة له. ومن مأثور قوله: "الصبر نصف الإيمان. واليقين الإيمان كله" فاتباعه كان تمحيصا بلغ من قبل مرتبة اليقين بالحق فيما كان وما قد يكون، فلم تكن اجتهاداته أو ابتكاراته في الأمور إلا دفقا من النور تلقاها من الرسول فألقاها للناس، في مناسباتها، آراء مبتكرة.

وكان عمر الفاروق بين الحق والباطل، وللتفرقة يجادل، ليبلغ مبالغه، ولقد طالما نزل القرآن بموافقته في مسائل أحصى بعضهم أنها بضع عشرة وأحصى آخرون أنها عشرون ونيف. منها ما خالف فيه النبي وأبا بكر كرأيه في أسارى بدر. ولما بلغه معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه فدخل عليهن فقال: "إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرا منكن" فأنزل الله آيته في ذلك. وجادل الرسول في الصلاة على ميت منافق فنزلت: (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره).

وكان عمر يذكر فضل الله عليه فيقول – كما في صحيح مسلم –: وافقني ربي في ثلاث: قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى فنزلت: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب. فنزلت: (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) وفي أسارى بدر فنزلت: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض).

* * *

ولقد ألقت السماء إلى الأرض معانيها عندما ألهمت عمر أن يكلف من يطلب بعد مماته إلى عائشة الإذن بأن يدفن في قبر صاحبيه – زوجها وأبيها – وعندما ألهمتها أن تؤثره على نفسها برفقتهما. ليجتمع في المكان والزمان ثلاثة أصحاب انتهت حياتهم، كلهم، في الثالثة والستين. وانتهت بهم هنالك كذلك، حقبة واحدة تشتمل على النظرية والتطبيق... في مراحل ثلاثة متكاملة. هي عصر الرسالة. وعصر ما بينها والدنيا – عصر أبي بكر. وعصر ما يجب أن تكون عليه الدنيا، كما نزلت لها – عصر عمر.

كانت العصور الثلاثة، عقدا من أنوار السماء. تنتظم (المدينة المنورة) حباته أو سنواته، التي صيرتها عاصمة الإسلام. واقترن المكان بالأشخاص والأشياء والآراء اقتران محتويات الوعاء بالوعاء. وأمست المدينة كالنص ومضمونه، فكرة لا مجرد بدلة. ونظاما لا مجرد مكان. أصبحت علما على الإسلام يطلق عليه الفقهاء والأئمة: المدينة المنورة التي إليها كانت الهجرة، أو دار السنة أو دار الهجرة.

الفصل الثاني

من المدينة إلى دمشق

"إنها حرم آمن.

"إنها حرم آمن.

"إنها حرم آمن" **(حديث شريف)**

دخل "الاتباع" التاريخ الإسلامي من باب السياسة. وأصبح المؤهل الأول للخلافة. والبيعة. ورضى الجماعة، ونبراسا للأمة. واساسا للفقه.

فلقد عهد عمر قبل أن يجود بروحه إلى ستة من السبعة الباقين على قيد الحياة ممن بشرهم النبي بالجنة ومات النبي وهو عنهم راض، ليختاروا من بينهم خليفة مستبعدا سابعهم (سعيد بن زيد بن نفيل) لأنه ابن عمه.

كان عمر يقول عن علي: لو وليها الأجلح (الأصلع) لحملهم على الجادة. لكنه تذكر ما قيل لأبي بكر عن شدة عمر إذ رشحه وجواب أبي بكر أنه سيقول لله إذا سأله استخلفت على أهلك خير أهلك.. فلم تعد الأيام كالأيام. وأبو بكر لقى ربه والمسلمون مشتبكون مع فارس والروم في كل الميادين فلم يكن يملك للإسلام ساعة يضيعها في المشاورات.

تولى عبد الرحمن بن عوف إدارة المداولات بين الحاضرين وخلع نفسه من الخلافة على أن يختار غيره. فبقى علي وعثمان وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام – وطلحة.

وكان عبد الرحمن من أكرم المسلمين وأعظمهم تقوى، فراح يسأل الناس سواء الغلمان أم القوم لهم أسنان، ومن الرجال والنساء وأمهات المؤمنين، واسر إلى علي فيما بينهما: أرأيتك، لو لم أولك فمن تشير علي أن أختاره؟ قال عثمان. وأسر السؤال إلى عثمان فقال: علي... فقربت عليه الشقة.

ومضت أيام الشورى فرقى المنبر، وجلس مجلس النبي، وطال وقوفه، وهو يدعو الله دعاء لم يسمعه الناس ثم قال: هلم إلي يا علي. فقام فبسط يده فأخذ بيد علي فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ قال علي: اللهم لا. ولكني أحاول من ذلك جهدي وطاقتي.

فأرسل يده وقال: هلم إلي يا عثمان فأقبل حتى وقف عند المنبر وبسط يده فأخذ بيد عثمان وقال:

هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ قال عثمان: اللهم نعم.

قال: اللهم اشهد. اللهم اشهد.. وبايع عبد الرحمن عثمان، ثم قام الناس فبايعوا عثمان... وبايع علي فيمن بايع.

والله يعلم أن عليا كان يجتهد اجتهاد أبي بكر وعمر، وقد طالما استشاراه والرسول قد استقضاه.

وأن قوله بمحاولة جهده وطاقته إنما هو احتياط الفقيه. يعد بما يقدر على الوفاء به. والله يقول: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) ويقول: (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) أن هو تواضع الذين لا يتعالون باقتدارهم. وإنه لمقتدر!

والشك في "اتباع" علي لمجرد قوله بمحاولة جهده شك في اتباعه القرآن والسنة واتباع أبي بكر وعمر. وهو لا يتصور، وليس معنى قول عثمان إنه يبايع على الكتاب والسنة وفعل أبي بكر وعمر أنه لن يجتهد في النازلة إذا نزلت. فالاجتهاد أول واجبات الإمام. ولقد طالما اجتهد عثمان للمسلمين وأحسن الاجتهاد، ولسوف يحاول لهم جهده وطاقته، ولسوف يصيبه المكروه من جراء بعض اجتهاداته.

وإنما هي إرادة الله جعلته يجيب عبد الرحمن جوابا يرضاه فيبسط إليه يده يبايعه. والله هو القابض الباسط الفعال لما يريد.

كان علي في الأربعين، أو يزيد شيئا، وكان عثمان يحدر نحو الثمانين عاما. أو منها. وحسب البعض أن الخلافة آيلة حتما إلى علي بحكم سنه.

ولقد أراد الله سبحانه امتحان المسلمين اثنى عشر عاما في خلافة عثمان. وبمقتل عثمان، ثم مقتل علي بعد نحو خمسة أعوام من الحروب، لينتقل الناس من عصر الخلفاء الراشدين إلى عصر الملك العضود – ملك معاوية وأهله – في دنيا البشر العاديين.

والذي حدث يوم البيعة، يكشف لنا منذ اليوم الأخير للسنة الثالثة والعشرين – أن (محاولة الجهد والطاقة) قد تؤخذ على أنها عدم اتباع للسنة ولعمل أبي بكر وعمر، أو أنها درب من الدروب غير المألوفة، مع أن فقه أبي بكر كان فيه من الاجتهاد ما بز فقه عمر، وعمر في كل ضروبه هو المجتهد الأكبر.

* * *

كانت الخلافة عبئا يبهظ كاهل الشيخ وهو يعبر الثمانين إلى التسعين على قول، ومع ذلك ظل في ولايته سنين وهو أحب الناس وأنجحهم.. واستحبت أنفس الناس أن تستريح. واستحب آخرون أن ينعموا بما أفاءت عليهم الفتوح. واشرأبت رؤوس كانت تزدان بالزهادة أيام عمر الذي كان يقول: "إني واقف لقريش بشعاب الحرة فآخذ بحجزها فحائل بينها وبين الفتنة". لكن عثمان أذن للصحابة أن يبرحوا المدينة إلى الأقاليم واتصل بعضهم بالجند. وبالناس، واستبدل بعضهم الأموال واتجروا.

وكان اليسر والسخاء والحياء عظم طباعه. وخلقه هو الذي أنجحه يوم الحديبية. ومن أجله كانت بيعة الرضوان يوم ذاك. وفي هجرته للحبشة ومعه زوجته رقية بنت الرسول يقول عليه السلام: "إنهما لأول من هاجر إلى الله بعد إبراهيم ولوط" وهو قد هاجر إلى المدينة بعد. فله هجرتان. وتزوج من أم كلثوم بنت النبي، زوجته الأخرى – فهو لهذا "ذو النورين". وفي زواجه من بنت الرسول قال عليه السلام: "لو كن عشرا لزوجتهن عثمان" وهو قد شهد المشاهد كلها مع النبي إلا أن يمنعه سبب قاهر.

وهو أكثر المسلمين عطاء في سبيل الله. اشترى بئر رومة يوم قال الرسول من يشتري بئر رومة[٢]... وله بها شرف في الجنة – وكانت ليهودي يبيع ماءها للمسلمين – فساوم عثمان اليهودي فأبى أن يبيعها كلها فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم وجعلها للمسلمين. فأصبح له

---

(٢) تقع شمالي غربي المدينة عند حرة الوبرة. والمدينة بين حرتين – غربية وهي حرة الوبرة وشرقية هي حرة واقم. وسيجئ ذكرها بعد. والحرة الحجارة السوداء.

يوم ولليهودي يوم. وراح المسلمون يستسقون كفايتهم في يوم عثمان. وكسدت سوق اليهودي، فخرج عن نصفه الباقي لعثمان بثمانية آلاف.

وذات يوم قال النبي من يزيد في مسجدنا؟ فاشترى عثمان موضع خمس سواري فزاده في المسجد. وقال النبي من جهز جيش العسرة فله الجنة. وجهزه عثمان بتسعمائة وخمسين بعيرا أكملها ألفا بخمسين فرسا. بل دفع ألف دينار فوق ذلك فقال عليهلاسلام: ما ضر عثمان ما فعل بعد ذلك.

ووسع قواد عثمان رقعة الإسلام. في أفريقية وفي روسيا ففتحت أرمينية. وقتل يزدجرد ملك الفرس في وسط آسيا. ووقعت غارة على الأندلس في أقصى الجنوب الغربي من أوروبا. ودخلت سفائن الإسلام أقصى جنوبها الشرقي في مضيق القسطنطينية. واحتلت قبرص، ووقعت معركة ذات الصواري لتجعل البحر الأبيض بحيرة إسلامية.

ويزيد عثمان فضلا عند الله والناس ما صنعه بكتاب الله بعد غزوة أرمينية سنة ٣٠ على نحو ما صنع أبو بكر وعمر بعد "اليمامة".

قدم حذيفة بن اليمان وكان يغازي أهل الشام وأهل العراق في فتح أرمينية وأذربيجان فأفزعه اختلافهم في القراءة فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل إلى أم المؤمنين فأرسلت الصحف التي جمع فيها القرآن أيام أبي بكر. فنسخت في مصاحف. وبعث إلى كل أفق بمصحف وأمر بما سواه أن يحرق. فالمسلمون الذين يحفظون ويقرأون المصحف العثماني منذ ذاك، وفي كل ساعة من ساعات الحياة، يذكرون عثمان.

لكن عثمان له أهل، هم بنو أمية، وقد طالما كادوا للإسلام قبل فتح مكة، وإن كان الإسلام يجب ما قبله. ومن أقرباء عثمان من كاد للنبي وكذب عليه أو ارتد عن الإسلام. وكان عثمان شيخا كبيرا – يستعين بمن يعرفهم. وكان مسماحا، وهابا، فطمع أصحاب المطامع، ومن ثمة أطلق القول فيه ناقدوه.

من حق عثمان أن يواجه التاريخ واللائمين بأنه لم يرشح نفسه وإنما رشحه الفاروق. وإن أصحاب الشورى اختاروه، وإن المسلمين بايعوه، وإن تخليه تقصير عن القيام بواجب المسلمين كما قام صاحباه أبو بكر وعمر.

ومن حقه أن يقول إنه اجتهد جهده. وإنه لم يرد إلا الإصلاح ما استطاع، وإن منفعة شخصية لذاته ليست في الحسبان.

ولقد كان يطعم الخل والزيت ويلبس ثوبا بخمسة دراهم. يتجافى جنبه عن المضاجع،وكان يصلي العشاء فيوتر بركعة يقرأ فيها القرآن.

ولقد بقى الصحابة يطيعونه حتى آخر أيامه فدلوا على إيمانهم به واستحقاقه طاعتهم. وفي طليعتهم علي وعمار وابن مسعود وأبو ذر وإن اعترضوا على بعض تصرفه.

وهم أثبات على أن عثمان كان وما يزال وجيها عند الله والناس كمثل علي بن أبي طالب وعمر وأبي بكر.

ويمكن تصوير النقد لعثمان في جملته بأنه محاولة لمؤاخذته عن عدم اتباع سنة سابقيه في طريقة الحكم. بل إن من النقد ما يوجه إليه في الفقه.

* * *

وأول ما نستبعده من نقد النقدة هو الفقه. ذلك أن من الخطأ العلمي مؤاخذته لأنه أتم الصلاة بمنى حيث كان النبي يقصرها للسفر. فالإتمام أصل. ولقد خطب عثمان الناس فأعلن أنه أراد أن يعلم البعض ووافقه الصحابة في اعتذاره. وضربه بعض فقهاء أهل السنة مثلا على سد الذريعة، وتعليم الناس الرخصة بالقصر لا يجعل تعليمهم الكمال خطيئة.

لكن هذا النقد يظهرنا على منحى اللائمين بعدم "الاتباع" لأنه لم يقصر الصلاة كما قصرها النبي بمنى، وفي شبهة الإقامة بمكة – مخالفة للاتباع كذلك. إذ الإقامة بمكة هي التي تمنع قصر الصلاة، في حين أن مقر الخلافة هو المدينة.. ولا سوى المدينة.

ولقد رفض عثمان أن يتحول إلى مكة في أثناء الفتنة أو إلى الشام نجاة بنفسه، وآثر الموت بالمدينة على النجاة بعيدا عنها.

أما عن استعمال العمال من أقربائه، فلمعاوية بينهم وضع فريد، أن كان عمر هو الذي استعمله بعد موت أخيه يزيد، ثم ضم إليه عثمان فلسطين وحمص، ومعاوية نابغة حكم وسياسة.

وأما عن استعمال الآخرين فيذهب البعض إلى أنه ليس لزاما عليه أن يقلد السابقين، في حين يذهب ناقدوه إلى أن النبي وأبا بكر وعمر لم يستعملوا أقرباءهم بل استعمل النبي على مكة عتاب بن أسيد، وقد أسلم يوم فتحها، وكان في العشرين، وهو من بني أمية، أبا وأما، وهم ألد الخصوم. والرد على ذلك بسيط: هو أن الزمان تغير ومن التغيير كان عثمان يقول: أين لنا بمثل عمر؟

وأعطى عثمان ولاته منحا.. وقيل إنه لما نوقش في ذلك قال: "إن أبا بكر وعمر كانا يظلمان أنفسهما وقرابتهما تقربا إلى الله. وأنا أصل رحمي تقربا إلى الله".

والحق أن عثمان كان محببا إلى قومه بل إن الشعبي ليروي: (وإن كانت المرأة من العرب لتقرص صبيتها وهي تقول: أحبك والرحمن حب قريش عثمان).

والذين عرفوا سخاءه وحياءه وأن ماله كان كله لله وللناس يدركون بيقين أنه كان يتقرب بالإنفاق إلى الله.

ولقد كان النبي يلقى أصحابه متفضلا غير متكلف فإذا أذن لعثمان احتشم وقال: كيف لا نستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟ ويقول إنه إن لم يفعل استحيا عثمان أن يثبت بين يديه ويبلغه حاجته ويأخذ حظه من التحدث إليه.

ادعي عليه ذات يوم فبذل المال وقبل الصلح وقال: إن حلفت ربما يصيبني آفة فيقول الناس إنه حلف كاذبا. وفي حين حلف عمر يوما لما ادعي عليه ولم يدفع المال خشية أن يقال إنه كان كاذبا في إنكاره ودفع المال فرارا من اليمين.

هكذا يجتهد عثمان على غير ما يجتهد عمر. أو هكذا كان بذال أموال. فلا يرى المال يستحق الخصومة!! وكانت خطة السير خطته لا خطة القوة – ولما قيل له لم لا تكون فينا مثل عمر؟ قال لا أستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم.

وبقي دائما الاستشكال من شانئيه وهو عدم اتباع عثمان سيرة سابقيه.

* * *

وفي سنة ٣٤ بعث بعض الصحابة إلى بعض يتشاكون، واجتمعوا إلى علي ليعظ عثمان فوعظه.

ورد عثمان: "أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك، وما جئت منكرا أن وصلت رحما...".

ووسوس الشيطان لبعض الأمويين فأقبلوا يبحثون لأنفسهم في الفتنة عن مكان.

خطب عثمان مرة فتدخل مروان بالحكم فزجره قائلا دعني وأصحابي... وتفاقم الأمر، فاستعان بعلي فأعانه فنجحا في مواجهة القادمين إليه محتجين.

وأخيرا تجمع الثوار من الكوفة ومصر وحاصروا داره، ثم تسوروها وقتلوه والقرآن بين يديه يتلوه.

ودخل علي دار عثمان يضرب أولاده وأولاد الصحابة الذين كانوا يحرسون عثمان فقال له محمد بن طلحة: يا أبا الحسن لا تشتم ولا تضرب، لو أن عثمان سلم الثوار مروان ما قتلوه.

قتل يوم أربعاء ودفن بليل يوم السبت!

وادارأ في التهمة القتلة. وأمسى بنو أمية وأصبحوا، فزعموا أن لهم في القتل قضية!!

قال أبو هريرة: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين فقال: يا أبا هريرة – أيسرك أن تقتل الناس جميعا وأنا منهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت واحدا فكأنما قتلت الناس جميعا فانصرف مأذونا لك. مأجورا غير مأزور. قال: فانصرفت ولم أقاتل.

هكذا آثر ذو النورين عثمان، أن يموت غير مدافع عن نفسه حتى لا تراق من أجله دماء المسلمين. وأقبل على لقاء ربه وكأنه يجود بروحه في إحدى الغزوات.

وكان مقتله بداية انقسام الأمة ونهاية اجتماعها الذي بوأها مكانتها العظمى.

وكان حقا أن يعتنق جمهور المسلمين قضية عثمان، فهو لا يقتل في تصرفات حسبت على بعض الولاة، وهو قد بذل قصاراه، ولما توقف أهل السنة في الحكم في خلافات هذه الفترة كانوا آية في الحكمة، فعثمان مثل أعلى للمسلمين في الدين، والحكم لله على نجاحه وإخفاقه في سياسته الناس. وأما الحكم على شخصه ودينه فقد أصدره صاحب الشريعة مرتين عندما بشره بالجنة وعندما قال: ما ضر عثمان ما فعل بعد ذلك.

وهكذا يظهر لنا من قبل تولية عثمان – وطيلة حكمه – كيف كان الاتباع قطب الرحى في ضمير الأمة.

* * *

بايعت المدينة عليا ثم بايعته الأمصار إلا أهل الشام حيث معاوية، ولم يلبث الزبير وطلحة أن خرجا إلى العراق وصحبا عائشة رضي الله عنهم ليتجهزوا لحرب علي فانهزموا في واقعة الجمل، وأقبل علي يسأل: "كيف أنت يا أمة؟ قالت بخير. قال: يغفر الله لك. قالت: ولك".

وسيرها معززة مكرمة إلى المدينة.

أما معاوية فراح يطالب عليا بدم عثمان كأنما قتله! وطالبه بأن يسلمه القتلة وكأن معاوية هو الخليفة!!

وفعلت أفاعيلها فكرة الدولة التي حان قطافها، وتلاقى الجيشان في صفين، وجاش الموت إلى جند الشام يشير إلى بشريات الهزيمة، فرفع معاوية المصاحف محكما كتاب الله.

ومالت إلى التحكيم أفئدة قواد علي فقبله، فخرج الخوارج عليه لقبوله التحكيم فيما هو حقه يقولون: "لا حكم إلا لله" ويخطب علي فيقول: "كلمة عادلة يراد بها جور – إنما يقولون لا إمارة ولا بد من إمارة برة أو فاجرة" ونازلهم بالنهروان فهزمهم.

وتقطع المسلمون أمرهم بينهم حتى في البيت الواحد.. شهد عدي بن حاتم الطائي الحرب مع علي ففقئت عينه، وقتل معه ابنه – أما ابنه الآخر فقتل مع خصوم علي.

وقضى بطل الإسلام بقية عمره يعبئ جيوشه للوقعة الفيصلة حتى اغتاله خارجي من الخوارج في سنة ٤٠ وكانت تركته سبعمائة درهم.

* * *

قبل الجمهور خلافة معاوية، واعتزل جماعة من الصحابة الفريقين من مبدأ الأمر مثل عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص وفيه يقول النبي: "هذا خالي. فليأت كل رجل بخاله". وأمسى بطل القادسية يقول: لا أقاتل حتى يأتوني بسيف يعقل ويبصر ويقول: أصاب هذا وأخطأ ذاك.

وأمسى موقف سعد وعبد الله علامة على الطريق. بل إن عليا يقول فيه للمسلمين: "لله منزل نزله سعد بن مالك وعبد الله بن عمر. والله إن كان ذنبا إنه لصغير مغفور ولئن كان حسنا إنه لعظيم مشكور".

وليس عجبا أن يقف معاوية ومروان بن الحكم في جوار ابن عمهما عثمان فإنما هي إرادة الله أجاءتهما إلى معترك الحوادث ليبني معاوية للإسلام دولة عظيمة حقا، يبايعه عليها جمهور المسلمين، ويلي مروان المدينة لمعاوية مدة تنمو فيها شجرته، فتحمل التبعة الكبرى لنشر الإسلام حتى حدود الصين في آسيا وحتى شواطئ الأطلسي بأفريقية وأوروبا. وتأخذ نصيبها من المدينة فيقدم عبد العزيز بن مروان للإسلام من زوجه "أم عاصم" بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، عمر بن عبد العزيز. ويثبت التاريخ به فتحا من فتوح بني مروان: أن الإصلاح لا يفوت أوانه مهما تراخى زمانه. وأن أشهرا معدودات من تطبيق أحكام الإسلام كفيلة بكبح فساد تخب فيه البشرية وتضع طيلة ستين عاما.

وهما معنيان مكملان للمبدأين اللذين بدأهما عمر بن الخطاب حين بين بحكمه اقتدار البشر في سنوات عشر أن يعملوا بالرسالة كما نزلت. وأنهم إذا عملوا بها كما نزلت، كتب لهم النصر، بفتوح الفكر أو بطولات الحرب أو بهما معا.

وليس غريبا أن يكون عمر بن عبد العزيز أكبر الأساتذة في دولة بني أمية لمالك بن أنس أو أن يكون مالك أموي الهوى، عثماني النزعة، وأن يكون من طبائع الأشياء أن يبقى اتباع

أئمة المدينة المنورة هو المنهج الأساسي في الشريعة، ويبقى تراث المدينة مستقلا عن الأعاصير والزعازع، لأنه تراث الرسول وسنته التي طبقها، ثم تابعه عليها الصحابة والمسلمون.

وهو منهاج سيقوم عليه، ويقويه، ويبعث به إلى مهاب الرياح الأربع، مالك بن أنس.

وليس عجبا أن تكون الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان وما أعقبها مفاتيح العالم الجديد كله، وقيام فرقه ودوله من الخوارج والشيعة والمتكلمين والمرجئة والمعتزلة، والأمويين والعباسيين والعلويين وغيرها، حتى إذا جاء دور أبناء علي كانوا أكثر من سواهم دولا.

بنو أمية

ولي معاوية الشام لعمر، وكان أخوف له من خادمه "يرفأ" كما قال علي لعثمان وهو يعظه، لكن معاوية بمواهبه وطموحه كان كالشريك لعثمان وكان له من طول ولايته – عشرين عاما – وسيلة لتثبيت ملكه عندما صار خليفة – عشرين عاما أخرى – وتناهت إلى حزب معاوية كل آمال بني أمية في أن يكون الشأن لهم، ولما قتل علي دون أن تلوث بدمه يد معاوية أو جيوشه آلت الخلافة إليه، وكأنها مائدة تهبط من السماء! وهدأ الهيج، وباخت النار، ولم يبق إلا رماد ذكريات بائسة.

كان جمهور المسلمين يشعرون بمقدار ما استغل معاوية الحوادث، وأن الأمور لم تصر إليه لتفرده في الصلاح الديني، أو قرباه من النبي، ولكن كثرة الذين بايعوه بهرتهم مزاياه العظيمة: من السياسة الحكيمة، والسماحة والصفح، والحلم والسخاء، والبيع والشراء، والبطش عند الضرورة... بقدر.

ونشأت منذ العصر الأول نظرية الجمهور في عدم الخوض في نزاع علي وأصحاب الجمل وقتلى صفين. قال الحسن البصري: "تلك دماء طهر الله منها يدي فلا ألطخ بها لساني" بل قال: "إن من المروءة أن يحفظ رسول الله في زوجته عائشة وفي الزبير، ابن عمته، وفي طلحة الذي وقاه بيده" وعلى هذا المنطق جاز لقائل أن يقول إن الرسول صهر لمعاوية في أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان، وإنه كاتب النبي عليه السلام بل كان هو وزيد أكثر الكتاب كتابة له، فمن المروءة أن يحفظ معاوية – ومعاوية لم يبلغ مكانه صاعدا إليه، وإنما جاءه واقعا عليه كالنسور من ولاية الشام ومن ميادين الحروب، وجاءه بمنهاج عظيم يقول فيه: "إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي. ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني. ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. كنت إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها".

كان نصير (أبوموسى) قائد حرسه فلما خرج لحرب علي لم يخرج معه. فسأله: ما يمنعك، ولي عندك يد لم تكافئني عليها. قال نصير: لم يمكني أن أشكر نعمتك بكفري بمن هو أولى منك بشكري. وهو الله عز وجل. قال معاوية: أستغفر الله، وأعفاه من الحرب وأبقاه على رأس الحرس.

ودخل عليه أبو بردة بن أبي موسى يقول له: إن عتبة الأسدي قال فيك... فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تضرب عنقه؟ لكن معاوية لم يكن كافر الغضب فقال: أفلا خير من ذلك؟ قال أبو بردة: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال معاوية: نجتمع أنا وأنت. ونرفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه..

* * *

كان خصومه يشتمونه وأمه وأباه، وإن لهم بأمه وأبيه لعهدا بين أئمة الكفر في خصومة النبي، وآله، وفي أيام بدر وأحد وسواها، فخرج معاوية عن عقله وعدله فطلب إلى ولاته شتم علي ﷺ، ولي المغيرة بن شعبة الكوفة سنة ٤١ فدعاه فقال له بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتمادا على بصرك بما يرضيني... ولست تاركا إيصاءك بخصلة: لا تتحم عن شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم وإطراء شيعة عثمان والاستماع منهم. فأقام المغيرة عاملا على الكوفة سبع سنين وأشهرا وهو من أحسن الناس سيرة. غير أنه لا يدع ذم علي والوقوع فيه، وإطراء عثمان وذم قتلته!

وكتبت أم سلمة إلى معاوية تقول: إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم لأنكم تلعنون عليا ومن أحبه. وأشهد أن رسول الله ﷺ أحبه.

وقصد إلى المدينة سنة ٤١ يحدد مركزه ومراكزها في ضوء منهاجه. قال: أما بعد فإني ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة لولايتي، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة. ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة – أبي بكر – وأردتها على عمل عمر – وأردتها على سنيات عثمان – (تصغير سنوات) فأبت علي. فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة. فإن لم تجدوني خيركم فإني خيركم ولاية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له. وإن لم يكن إلا ما يشتفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي. وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه فإن أتاكم مني خير فاقبلوه. فإن السيل إذا جاء يثري وإذا قل أغنى. وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة.

رمى معاوية المدينة بمروان سنة ٤٢ أو رماه بها. وطالت ولايته عليها، وكان مروان محتفظا بعلاقة طيبة مع آل علي وآل سفيان منذ أعطاه علي الأمان. بعد وقعت الجمل. فأفاد لنفسه وأفاد معاوية. وكانت المدينة تسقى من مياه الآبار والمطر فأمر معاوية مروان فحفر العين المسماة بالعين الزرقاء (قيل لزرقة عين مروان) وأجراها في نفق أرضي من قباء إلى المدينة.

وفي سنة ٥٠ أراد معاوية أن يحرم المدينة منبر النبي فينقله إلى دمشق فيزيل أثرا من الآثار الأساسية لمجدها فإذا بالشمس كسفت، وإذا بالنجوم رئيت. فأعظم الناس ذلك، وزلزل معاوية فتركه مكانه وكساه وقواه.

ثم عزم على أن يستخلف ابنه فولى وجهه شطر المدينة حيث المنافسون من أبناء الصحابة الأولين. قال له عبد الله بن الزبير – نخيرك بين ثلاث خصال: نصنع كما صنع رسول الله... أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر. قال معاوية وهو يتداهى: ما صنعوا؟ قال:... قال معاوية: هل عندك غير هذا.

وأخذ البيعة بالرشى والسيوف والدهاء والجدل، أي بالسياسة. وكان يملك كان مفاتحها. ثم مات. فتولى يزيد (٦١ – ٦٤) وخرج عليه الحسين بن علي من المدينة فقتل في كربلاء يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦١ هو وستة إخوة له من أولاد علي، وخمسة من أحفاد فاطمة واثنان من أولاد عبد الله بن جعفر.

وبعث والي المدينة إلى يزيد وفدا من أشرافها. فأكرم الوفد وأجازه. فلما عادوا إلى المدينة، طعنوا في دينه.ووثبت المدينة بالأمويين فيها. وكانوا قرابة ألف رجل تجمعوا في دار مروان فحاصرهم الثوار. ثم أخلوا سبيلهم بعد إذ أعطوهم موثقا ألا يدلوا على عوراتهم فتوجهوا تلقاء الشام. إلا عائشة بنت عثمان بن عفان زوج مروان. توجهت إلى الطائف في حماية علي بن الحسين (زين العابدين). الابن الذي نجا لمرضه في مجزرة كربلاء. وأنفذ يزيد جيشا يؤدب الحجاز.

وتلاقى الأمويون المسرحون والجيش عند وادي القرى سنة ٦٣ فدعا القائد عمرو بن عثمان بن عفان من بينهم ليشير عليه. فقال: إنه أعطى موثقا. فلم يمنع القائد من ضرب عنقه إلا أنه ابن عثمان.

ودخل عليه عبد الملك بن مروان، فدله على خطط أهل المدينة فعسكر الجيش في الحرة[٣]. في اثنى عشر ألفا شمال شرقي المدينة. وأمهل أهلها أياما ثلاثة ليستسلموا، فرفضوا. وأمروا عليهم عبد الله بن حنظلة (حنظلة الراهب الذي غسلته الملائكة يوم أحد) وكان عبد الله قد ولد بعد استشهاد أبيه. فكان شهيدا ابن شهيد! بل أبا في هذه المعركة لثمانية من شهدائها!

وأباح القائد الباطش المدينة ثلاثة أيام لجنوده. فسفكوا وأسفتوا. وأخذوا البيعة من أهل المدينة كعبيد. وقتل من الصحابة ثمانون رجلا فلم يبد بدري بعد ذلك. ومن قريش والأنصار ثمانمائة. ومن الموالي والتابعين وسائر الناس عشرة آلاف. وفي رواية ١٣٠٠ من قريش، ١٤٠٠ من الأنصار، ٣٥٠٠ من الموالي!

وأخذت السماء يزيد بذنوبه، فمات والجيش يحاصر مكة، فانصرف الجيش عنها ملوما مذموما بعد إذ أحرق الكعبة.

* * *

ورجع بنو أمية الراحلون إلى المدينة ثم لم يلبثوا إلا قليلا حتى خرجوا منها بعد فتنة ابن الزبير وقد شملت المدينة ومكة والحجاز كله حتى سنة ٧٣. أما مروان بن الحكم فرحل عنها في ربيع سنة ٦٤ إذ مات معاوية بن يزيد بعد ثلاثة أشهر من هلاك أبيه، رافضا أن يعهد إلى أخيه خالد، وعقد بنو أمية مؤتمرا انتهى إلى بيعة مروان. فتزوج زواج السياسة من أم خالد، وعاش نحو عام وطد الأمر لبنيه. ثم عهد إلى ولديه عبد الملك فعبد العزيز.

وتولى عبد الملك (٦٦ – ٨٦) وولى أخاه عبد العزيز مصر وأفريقية، وفي عبد الملك يقول ابن عمر: "إن لمروان ابنا فقهيا فاسألوه" وأبو الزناد يعده بين فقهاء المدينة، بعد سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب (٨٦).

وفي سنة ٧٢ استرجع المدينة له من ابن الزبير طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان.

ثم قتل الحجاج بن يوسف الثقفي عبد الله بن الزبير بمكة، وأصبح واليا على المدينة ومكة مدة ثلاثة أعوام قبل أن يصير واليا على العراق حتى سنة ٩٥، فلبث بالمدينة ثلاثة أشهر

---

(٣) سميت وقعة الحرة لأن الجيش عسكر عند حرة واقم الواقعة شرقي المدينة وهي إحدى حرتين تقع بينهما المدينة.

"يتعبث بأهلها ويتعنتهم.. واستخف بأصحاب رسول الله ﷺ وختم على أعناقهم" كما يقول الطبري[٤].

ولم يكن بين الخليفة الفقيه وبين أهل المدينة إلا المشافة وفي نفسه شعور بالذنب، مذ دل على عوراتها أيام وقعة الحرة. فولى عليها هشام بن إسماعيل المخزومي فقسا عليها، وعلى أهل البيت.

أدخل الأسرى ذات يوم على عبد الملك فأمر بضرب أعناقهم دون سؤالهم: قال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه. لقد أقست الخلافة قلبك بعد أن كنت رءوفا! قال: كلا ولكن أقساه الضغن بعد الضغن.

ولقد كان يستنكر ضرب جيوش يزيد للكعبة سنة ٦٣ لكن الحجاج ضربها له في سنة ٧٣!

وفي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦) بلغت الدولة الإسلامية أبعد الحدود – من أسوار الصين شرقا إلى شواطئ المحيط الهندي جنوبا، وإلى شواطئ المحيط الأطلسي في غرب أوروبة. فأسس أول مسجد بالأندلس في أوروبا يوم دخل موسى بن نصير الجزيرة الخضراء في رمضان سنة ٩٢ وأسس قتيبة مسجد قتيبة القائم إلى الآن في بخارى في روسيا الحالية وأرسل القائد العربي إلى إمبراطور الصين (يوانغ جونغ) يطلب الجزية فبعث إليه جزية رمزية.

وعين الوليد في إمرة المدينة عمر بن عبد العزيز.

وتولى أخوه سليمان سنة ٩٦ إلى سنة ٩٩ وفي عهده حاصر أخوه مسلمة القسطنطينية.

وعين على المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وسنرى بعد أثره وأثر بيته في مالك. وبيته من أعظم بيوت الأنصار، يقول المستشرق (فلهوزن): إن لجده ضلعا كبيرا في الثورة

---

(٤) انتصر الحجاج في دير الجماجم على ابن الأشعث – إذ خرج على عبد الملك وكان سعيد بن جبير الفقيه (٩٥) في الأسرى فقال له الحجاج اختر لنفسك أي قتلة شئت. قال سعيد: اختر أنت لنفسك فإن القصاص أمامك.

جاءه رجل كان قد اعتزل الفتنة قال إنه انتظر انتهاء الفتنة ليبيع فقال له: أمترص؟ ثم قال: أتشهد أنك كافر؟ قال الرجل بئس الرجل أنا إن كنت قد عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر! فضرب عنقه!!!

على عثمان، وربما فهم ذلك فلهوزن لقول ابن قتيبة: إن الثوار تسوروا دار عثمان من دار بني حزم الأنصاري. فبنو حزم قد يكونون مجرد جيران تسور الثوار دارهم. وإكرام بني أمية لحفدتهم ثبت براءتهم.

وكان سليمان يستمع للفقيه الكبير رجاء بن حيوة، الذي أخذ البيعة لعمر بن عبد العزيز بوصية من سليمان بعد موته. وصرف عمر مسلمة عن حصار القسطنطينية رفقا بالمحاربين وإدراكا منه أن المسلمين كانوا يومذاك أحوج إلى فتح في داخل أنفسهم وفي ممارستهم لدينهم، منهم إلى فتوح في الدنيا.

ويمكن تلخيص خمسة عشر عاما من عمر الدولة الأموية انتهت بموت عمر بما قاله الطبري في تاريخه: "كان إذا التقى الناس في زمانه – الوليد – يسأل الناس بعضهم عن البناء والمصانع. فولى سليمان بن عبد الملك. فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج، والجواري. فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن وما تصوم من الشهر".

* * *

وفي العام الذي عزل فيه عمر عن المدينة، ولد بإقليمها طفل هو مالك بن أنس تملأ سمعه ذكريات الرواة عن إمارة عمر للمدينة، وإمارته للمؤمنين، فراح يرقى مراقي العلماء في مدرسة عمر، ليموت بعد تطاول العمر، مخلفا مذهبا يسود آسيا وأفريقية وأوروبا بالأندلس وكانت قد فتحت في العام السابق على ميلاده لتغلق عليه حدودها، فلا تأذن لغيره أن يجد مكانا إلى جواره.

سأل السلطان المتناظرين أمامه: من أين أبو حنيفة؟

قالوا: من الكوفة. قال ومن أين مالك؟ قالوا من المدينة. قال: عالم دار الهجرة يكفينا. وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة قائلا لا أحب أن يكون في عملي مذهبان!